6

بناء شبكة تهريب سرية

الولايات المتحدة

عادت موجة تحرير العبيد مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، بعدما أخذت تتكشف صور الاتّجار بالبشر في هذا البلد الذي خاض حربًا أهلية دامية؛ (1861 — 1865) بين ولايات الشمال والجنوب لاختلافها على قضايا كثيرة على رأسها قضية العبودية.

وقد اكتسب لويس إيتونوي شهرة واسعة لتحريره العبيد من بيوت العائلات الغنية في ولايات فرجينيا وميريلاند ونيوجيرسي. بدأ لويس حملته في عام 1999، ونجح في تحرير العديد من الفتيات الإفريقيات من الخدمة المنزلية والعبودية الجنسية. والمثير في الأمر أن الرجل لم يتلق تدريبًا في قانون الهجرة، وغير مدعوم من أي منظمة من منظمات الخدمة الاجتماعية، ويموّل نشاطه بعمله مستندا إلى مبدأ مؤمن به: لن أظل متفرجًا وأنا أرى الضواري تفترس الضعاف.

بدأت رحلة لويس عندما كان يتناول العشاء ذات ليلة في بيت ابن عمه في مدينة ديشموند في ولاية فرجينيا. أخبره ابن عمه إنه يقدم مساعدة لصديق له بإيواء فتاة مراهقة من الكاميرون هاربة من الأسر. أثار اصطلاح الأسر فضول لويس. للوهلة الأولى، اعتقد أن الفتاة ربما وقعت في مشكلات سياسية في الكاميرون التي ولد فيها هو أيضًا.

أصيب لويس بدهشة شديدة والفتاة تروي قصة عبوديتها في بيت إحدى العائلات الغنية في منطقة ريشموند. قالت الفتاة إن أسيادها وعدوا والدَيْها الموجودين في الكاميرون بأنها سوف تتلقى تعليمًا مقابل خدمتها في منزلهم.

كما وعـدوا بإرسال راتبها إليهمـا بانتظام. وقد استخـدم الزوجان الأمريكيان جواز سفر ابنتهما مع صورة مزيفة لإدخال البنت إلى الولايات المتحدة. عندما وصلـت الفتاة إلى ولاية فرجينيا، أُرغمت على العمل في نوبات تمتد من الصباح إلـى المساء. وإضافة إلى ذلك، فإن الطفلة البالغة من العمر 14 عامًا لم تذهب إلـى المدرسة مطلقا، بل كانت مرغمة على البقـاء داخل المنزل وعدم الخروج منه إلا بصحبة الزوج أو الزوجة. ومنعاها كذلك من إجراء أي مكالمة مع أهلها في الكاميرون. هذا، إضافة إلى الاعتداء الجنسي عليها من قبل الزوج.

وفي أثناء سرد حكايتها أمام لويس، ألمحت البنت إلى أنها ليست الوحيدة من عائلتها التي جرى تهريبها إلى الولايات المتحدة، فسألها: ماذا تعنين بوجود أخريـات سقطن فـي المصيدة نفسهـا؟ أجابت: لقد أُحضـر العديد من فتيات منطقتي إلى هنا.

وعندما سألها إن كانت تعرف أسماءهن وأماكنهن، قالت:

– بـكل تأكيد، أستطيع تزويدك بالأسماء والأماكن. لا أشعر بطعم الحرية وهنّ ما يزلن في الأسر. عليك مساعدتهن.

في تلك اللحظة، عرف لويس أنه أمام قضية نبيلة، ولم يكن أمامه أي خيار سـوى الاستماع لنداء الواجب، وهو الذي وقف طوال حياته إلى جانب الضعفاء. حتـى وهو في المدرسـة المتوسطة، كان يمنع المتنمرين مـن استغلال الأطفال الضعفاء، ويتدخل لفض العراك حتى ولو لم يكن له علاقة به.

شعـر وهو يستمـع إلى إفادة هذه الفتاة الخائفـة أن هناك مسؤولية كبيرة بانتظـاره. وعندما اعترف له ابن عمـه أنه لا يستطيع إيواء هذه البنت لأكثر من أيـام قليلة، وافق لويس وزوجته على أخذها إلى بيتهما. وفي اليوم التالي، اتصل

لويس بمكتب التحقيقات الفيدرالي، وأبلغ عن حادث اختطاف دولي وعمل من أعمال السخرة، وقال إنه يأوي فتاة هاربة في بيته.

العبودية في أمريكا الحديثة

أجرت منظمة مناهضة الاتّجار بالبشر المسّماة حرّروا العبيد (Free the Slaves) دراسة مشتركة مع مركز حقوق الإنسان في جامعة كاليفورنيا في الفترة من 1998 — 2003. وأصدرت المنظمة تقريرها النهائي بعنوان: العبيد المخفيون: أعمال السخرة في الولايات المتحدة، وثقت فيه طبيعة العبودية ومداها داخل الحدود الأمريكية[1]. وكشف التقرير عن الاتجاهات البارزة الآتية:

- يجري تهريب الأجانب إلى داخل الولايات المتحدة من خمس وثلاثين دولة على الأقل. وينتمي معظم المُهرَّبين إلى الصين والمكسيك وفيتنام.
- الولايات الأمريكية ذات النسبة العالية في العبودية هي: كاليفورنيا، وفلوريدا، وتكساس، ونيويورك.
- تدير عصابات إجرام مكسيكية، وآسيوية، وأوروبية شرقية شبكات واسعة للاتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة، مستهدفة مجموعات المهاجرين أساسًا.
- يستقدم المواطنون الأمريكيون والمقيمون الدائمون إلى البلاد الآلاف من عبيد الخدمة في المنازل.
- تشغل 75% من مصانع الألبسة في نيويورك العمال بأجر متدنٍ، وتحت ظروف سيئة، وغالبًا ما تشغل العمال دون أجر بتاتا.
- تنتشر أعمال السخرة في خمسة قطاعات من قطاعات الاقتصاد الأمريكي هي: البغاء وخدمات الجنس (46%)، الخدمة المنزلية

(27%)، الزراعة (10%)، المصانع (5%)، المطاعم وأعمال الفندقة (4%).

يصعب على كثير من الأمريكيين التصديق أن العبودية لا تزال موجودة في العالم بنسبة عالية، وربما في مجتمعاتهم أيضا. ولكن ذلك لا ينفي حقيقة وجود عشرات الآلاف من الأشخاص الذين يكدحون داخل الولايات المتحدة دون أجر وتحت تهديد العنف. ولأن أعمال السخرة غالبًا ما تحدث في بيئات العمل غير المنظمة، أو التي تستخدم العمالة الرخيصة، فإن معظم الأمريكيين قد يشاهدون حالات عبودية دون إعارتها أي اهتمام.

ونظرًا لسوء الفهم الشائع لدى كثير من الناس، نود التأكيد على أن حالات العبودية لا تتعلق كلها بالمهاجرين غير المسجّلين؛ فصحيفة ديترويت فري بريس، مثلا، أشارت في عام 2003 إلى أن شرطة ولاية ميشيغان كشفت عصابة للاتجار بالبشر تمتد عبر عدة ولايات أمريكية وتشمل فتيات من وسط غرب الولايات المتحدة تبلغ أعمار بعضهن 13عامًا فقط. وقد اكتشفت الشبكة الإجرامية عندما دخلت فتاة تبلغ من العمر 17عامًا أحد المحال التجارية في مجمع تجاري في ديترويت، وطلبت مساعدة من رجل الأمن. تردد الحارس في البداية، ولكنه ما لبث أن رأى مختطفيها يقتحمون المكان بحثًا عنها. لاحظ الحارس أن الفتاة كانت خائفة وقد تعرضت للضرب، فأبعد الملاحقين لها واتصل بشرطة الولاية.

أبلغت الفتاة الشرطة أنها اختطفت عندما كانت تنتظر عند موقف للحافلات في وسط مدينة كليفلاند، ونقلها مختطفوها بسيارة إلى ديترويت حيث أُرغمت على ممارسة البغاء.

استطاعت الفتاة تحديد البيت الذي كانت محجوزة فيه في مدينة ديترويت. وهناك، اعتقلت الشرطة رئيس الشبكة. وبعد مزيد من التحقيقات، اكتشفت

الشرطـة أن العصابات كانت تختطف المراهقات طوال ثمانية أعوام، وتوزعهن على المدن عبر ولايات وسط غرب الولايات المتحدة.

أعلنت والدة الفتاة التي أدى هروبها إلى كشف هذه الشبكة: الأمر كله غير معقول ولا يصدّق. إنها العبودية. إنهم يغرون هؤلاء الفتيات ويجبرونهن على القيام بكل ما يريدونه. إن هذا التصرف الذي يمارسونه مع أطفالنا مشين ومقزّز [2].

النائب العام والمصارع

انضمت سوزان كوبيج إلى مكتب النائب العام في المقاطعة الغربية لولاية جورجيا بعد تخرجها في جامعة حقوق سنغافورة بفترة وجيزة.

كانـت متحمسة جدًّا للدفاع عن ضحايا الخدمة القسرية، فتولت التحقيق مـع 14سمسـار فاحشة. كانت تلك قضيتها الأولى، ولكـن القضايا توالت واحدة إثـر أخرى، ممـا جعلها خبيرة في قضايـا الاتّجار بالبشـر. واكتسبت من جراء هذه التحقيقات والقضايا خبرة كافية جعلتها مستعدة لجولة قانونية مع مصارع محترف سابق يُدعى هاريسون هاردبوي نوريس.

كان هاريسون من النجوم المتألقة في بطولة العالم للمصارعة في تسعينيّات القـرن الماضي، وكان يتمتع بروح دعابة وجسم رائـع يؤهله للنجاح في أي عمل يُقْدِمُ عليه. كما أن الخدمة العسكرية القاسية في الجيش الأمريكي جعلته منضبطًا ذاتيًّا وزاهدًا في الدنيا.

كان هاريسـون متزوجًا، وله ابنة مراهقة، وكان يعيش مع عائلته في مدينة شيسترفيـل التـي تبعد نحو 30 ميـلا عن مدينة أتلانتا في ولايـة جورجيا. وكان يمتلك بيتين، أحدهما يشتمل على قاعة للتدريب مجهزة تماما. في إبريل 2004، قرر هاريسون البدء بتدريب الجيل الثاني من نجوم المصارعة. لكن المصارعين الذين اختار تدريبهم لم يكونوا مصارعين عاديين، بل مصارعات.

في كل مكان يذهب إليه، كان هاريسون يبحث عن نساء معينّات، ويمنحهن فرصة تجربة حياة جديدة وتحقيق النجومية. أطلق على النساء ألقابا خاصة بالمصارعة، وكان يناديهن بها. بعد ذلك، ألحق كل واحدة منهن بفريق، وطبّق عليهن نظامًا عسكريًّا قاسيا في التدريب والأكل. كما منعهن عن التدخين وتناول الكحول والمخدرات أيّا كان نوعها. ومع مرور الوقت، أصبحت النساء أكثر رشاقة وطاعة وصحة.

مشروع بولاريس؛ الاهتداء بنجم الشمال

بعد اصطدام طائرتين بمركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك يوم 11 سبتمبر من عام 2001، لم تكن كاترين شون طالبة الجامعة الوحيدة التي نشأت وهي تحمل همًّا حول مستقبل العالم، وكانت في الأيام التي أعقبت الهجوم توجه النقاشات في لقاءاتها مع أصدقائها في جامعة براون نحو القضايا الاجتماعية العالمية.

في أحد هذه النقاشات، سأل ديريك إليرمان: إذن، ما رأيك، هل الدين هو الأداة التي يستخدمها الناس لتبرير أعمال الإرهاب والاضطهاد. انظري إلى تاريخ الولايات المتحدة، لقد استخدم المسيحيون الإنجيل لتكريس ممارسة العبودية. هذا صحيح، أجابته كاترين، ولكن الإنجيل نفسه هو ما ألهم المسيحيين الآخرين ليصبحوا الرّواد الأساسيين في حركة مناهضة الرق.

كانت هذه هي البداية التي انطلق منها النقاش اللاحق بين مجموعة من الطلاب الذين حضروا اللقاء، حول القوى الاجتماعية التي نجحت واقعيًّا في وقف تجارة العبيد في القرن التاسع عشر. وبسرعة، حوّل ديريك الموضوع عندما قال: حسنًا، ما المطلوب، برأيك، لإنهاء العبودية اليوم؟

نظرت إليه كاترين بارتباك، وسألته: ما الذي تتحدث عنه؟

قـال ديريك: ما أتحدث عنه هو أن النسـاء والأطفال يُخطفون، أو يُباعون، أو يُـزج بهم رغمًا عنهم في سوق الدعـارة. إضافة إلى وجود ملايين من الناس يعانون من أعمال السخرة في الهند ونيبال وباكستان.

أصيب زملاء ديريك بصدمة شديدة، في حين اعتقدت كاترين أن ديريك يبالغ في الأمر، وإلّا لكانت سمعت بهذه الانتهاكات وهي في جامعة براون. ولكن، عندما جلست لتدرس في تلك الليلة، ظلت كلمات ديريك تدور في رأسها. ولذلك، نحّت كتبها جانبًا، وأخذت تبحث في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) عن معلومات حول الاتّجار بالبشر. حينها، عثرت على تقرير مفصّل من إحدى منظمات حقوق الإنسان عن ملايين من ضحايا العبودية المعاصرة.

تستذكر كاترين ردة فعلها آنذاك قائلة: كنت في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية، ولم أكن أعلم أن هذه المشكلة الكبيرة موجودة. وفي اليوم التالي، سألت أكثر الطلاب الناشطين سياسيًا وأساتذة الجامعة إن كانوا يملكون معلومات عن تجارة العبيد العالمية، فاعترفوا بجهلهم لهذه الظاهرة.

قـررت كاتريـن أن تستقصـي الأمر، فبـدأت تبحث عن مواضيـع تتناول العبوديـة. في إحدى الصحف، عثرت على مقالة تتحدث عن غارة للشرطة على مركـز للتدليك، لا يبعد سوى أميال قليلـة عن جامعتها. وجاءت الغارة بعد تلقي الشرطـة معلومـات تشير إلى أن ذلك المركز يدير بيتًـا للدعارة. وعلى إثر هذه الغـارة، اعتقلت ست نساء من كوريا الجنوبية. وتبيـن أن تجار الرّقيق أحضروا تلـك النسوة بجوازات سفر مـزورة، ثم احتفظوا بتلك الجـوازات عند دخولهن إلى الولايات المتحدة، وأجبروهن بعد ذلك على بيع أجسادهن في سوق الجنس التجـاري. وبالرغم من إفادات النســاء وآثار التعذيب الظاهرة على أجسادهن، إلا أن الشرطة اعتقلتهن بتهمة ممارسة البغاء.

اعترت كاترين صدمة؛ لأن هذا يجري قريبًا منها دون أن تدرك ذلك. ولم ينتـه الأمر عند هذا الحد، بل تحوّل إلى قضية شخصية لأنها نفسها من مواليد كوريـا الجنوبية، كما أن عمرها يقارب أعمار أولئك النساء. أخذ الغضب يعتمل في صدرها كلما قرأت أكثر عن تجارة الرّقيق المعاصرة. وعندما أبلغت ديريك برغبتهـا في الانضمام إلى حركة مناهضة الرّقيـق، قال لها: سوف أنضم معك أيضًا، إذ لا يمكننا أن نظل متفرجين تجاه ما يحدث.

ولكـن، أصيبـوا بخيبة أمل بسبب عـدم العثور على منظمـة تقبل بالتحاق المتطوعين بها؛ لأن مجموعات مناهضة الرق الموجودة كانت تبحث عن محترفين ذوي تأهيل عالٍ. وعليه، كان الخيار الوحيد أمامها هو تنظيم حملة لجمع التبرعات، أو عرض فلم في الحـرم الجامعي. كان الاثنان يرغبان في الانخراط بالحركة، لكنهما أدركا أن عليهمـا أولا فهم آليات عمل العبودية المعاصرة. ولذلك، أقنعا اثنين من أساتذتهما بتغيير المساق الدراسي في الفصل القادم، وتكليف الطلاب بإجراء دراسات غير مسبوقة عن الاتّجار بالبشر.

درجت جامعة بـراون على الإعلان عن مسابقة سنوية لأصحاب المشاريع الريادية لإعداد خطة عمل لتأسيس شركة حديثة. ومع أن المسابقة كانت موجهة لمتقدميـن يبنون مشاريع تجارية ربحية، إلا أن ديريك وكاترين رأيا أن الشروط تنطبـق عليهما، حتى وإن كان الهدف تحقيـق العدالة الاجتماعية. ولذلك، أعدّا خطة عمل لإنشاء وكالة تستثمر تقنيات الاتصالات والمهارة الإدارية في مناهضة تجـارة الرق. وبالرغم من فكرتهما غيـر العادية، إلا أنهما فازا بالمركز الثاني، وحصـلا على جائـزة نقدية قدرها 12.500 دولار تكفـي لإنشاء وكالة لمناهضة الرق، أطلقا عليها اسم بولاريس بروجكت، إشارة إلى النجم القطبي الذي اهتدى به عبيد الولايـات المتحدة في هروبهم لنيل الحرية في القرن التاسع عشر عبر خطوط التهريب السرية.

لويس ايتونوي؛ إذا هبّت رياحُك فاغتنمْها

تأخر مكتب التحقيقات الفيدرالي في الاستجابة لبلاغ هاريسون عن وجود شبكة تجارة بالبشر في مدينة ريشموند، ولذلك لجأ إلى دائرة الهجرة والتجنيس، والشرطة المحلية. استمعت الجهتان له باهتمام، ولكنهما لم يعطيا الأمر أولوية، كما لم يتابعا الدليل الذي قدّمه لهما عن وجود مزيد من الفتيات المهرّبات من الكاميرون.

يقول هاريسون عن ذلك: لقد أدركت حينها أنني إذا لم أتحرك، فلن يتحرك أي إنسان آخر. لذا، اتصل بهاتف منزل عائلة من عائلات نيوجيرسي زودته بها الفتاة الهاربة. كان يأمل أن تكون الفتاة الخادمة وحدها في البيت. ولذلك، فقد اتصل ظهرًا. وقد نجحت خطته، حيث ردّت الفتاة الكاميرونية وقالت إن عمرها سبعة عشر عامًا، وأنها قضت ثلاث سنوات في العبودية، وتعرضت للإساءات نفسها التي تعرضت لها ضيفة هاريسون. اعترفت له الفتاة بأنها استسلمت لحياة العبودية.

عندما سألها هاريسون عن موقع قريتها في الكاميرون، ذكرت له اسم قرية لا تبعد سوى ميلين عن القرية التي ولد فيها. لم يندهش كثيرًا عندما ذكرت له اسم القرية، لكن الصدمة جاءت عندما سألها عن عائلتها وذكرت اسم أمها. لم يصدق أذنيه؛ فأم الفتاة كانت ابنة عمه التي عرفها طوال حياته.

قبل أن يضع سماعة الهاتف، كان صوتها يلاحقه من الطرف الآخر: أرجوك أن تخلصني من هذا السجن.

يؤمن هاريسون بأن على الإنسان أن يغتنم الفرصة المثالية عندما تتاح له، لأنها قد لا تتكرر مرة أخرى، فقال لها: لقد تركك أصحاب البيت وحدك، لذلك، علينا اغتنام الفرصة لإخراجك منه.

وضعا خطة هروب سريعة، لكن الفتاة قالت إنها تعتني بثلاثة أطفال صغار، وأن مـن الخطأ تركهم وحيدين. وما أن أنهـت جملتها حتى رأت صاحبة المنزل تعـود في الساعة الرابعة بعـد الظهر على غير عادتها، وهـي تقود سيارتها عبر ممـر طويل. عندها، تسللت الفتاة مـن الباب الخلفي حسب الخطة، وهربت إلى شـارع فرعي قريب. كان هاريسون قد اتصل بـأخ زوجته في نيوجيرسي، وطلب إليه انتظار الفتاة بسيارته في ذلك الشارع، وأخذها إلى منزله، ومن ثمَّ انتظار حضور هاريسون الذي سيأتي إلى نيوجيرسي في تلك الليلة بعد انتهاء دوامه في فرجينيا؛ نجحت الخطة تمامًا، وأنقذت الفتاة.

في طريـق العودة من نيوجيرسي إلى فرجينيا، سـردت له الفتاة تفاصيل أسرها، وكيف أنها لم تتصل بعائلتها طوال سنوات ثلاث.

وبحلـول عـام 2002، كان هاريسون قد نجح في إنقـاذ فتاتين أخريين من عبوديـة الخدمة المنزلية. عاشت الفتيات في بيته طوال تلك المدة. ولكنه وجد صعوبة في إقناع الجهات القضائية لتوفير الحماية لهن، رغم محاولاته المتواصلة. وعادة ما يكون التحقيق في جريمة الاتّجار بالبشر بطيئًا جدًّا في الولايات المتحدة، حتى في مثل هذه الحالات التي وثّقت فيها شهادات الضحايا. وكما يحدث عادة، زعـم تجار الرّقيق أن أهل هؤلاء البنات قد وقّعـوا على عقد عمل يسمح بتشغيل بناتهم، وأنهم يملكون الوثائق التي تثبت ذلك.

كادت القضيـة أن تنتهي عند هذا الحـد؛ لأن السلطات القضائية المحلية والاتحادية لم تكن مستعدة لإرسال محقق إلى إفريقية لكشف الحقيقة.

أمام هذا الوضع، قرر هاريسون شراء تذكرة طائرة وكاميرا فيديو، وسافر إلـى الكاميـرون على حسابه الخاص. عندما وصل إلى هنـاك، ذهب إلى بيوت عائـلات الفتيات الموجودات في بيتـه، وصوّر إفاداتها، وكيـف أن تجار الرّقيق وعدوا بتعليم البنات، ودفع أجر مجزٍ لهن.

أفادت هذه العائلات إنها لم تعرف شيئًا عن بناتها منذ ذهابهن إلى الولايات المتحدة، كما أنها لم تتلق أي نقود من الذين يعملن لديهم.

اغتنم هاريسون الفرصة وزار قريته. وعندما وصل إلى هناك، وجد ابنة عمه في حالة حداد، وقد اتشحت بالسواد. استقبلته باكية وقالت له وهي تذرف الدمع السخيّ: كنت أتمنى يا ابن العم أن احتفل بقدومك من أمريكا، ولكني تلقيت أخبارًا عن اختفاء ابنتي في وطنك الجديد، وأنها ربما تكون قد ماتت.

عندما هدأت الأم قليلا، عرض هاريسون عليها وعلى أهل القرية رسالة مصورة من البنت إلى عائلتها وأصدقائها، فتعالت الزغاريد في القرية بهجة وسرورا.

النائب العام والمصارع في المحكمة

نظرًا لأن جرائم الاتّجار بالبشر يمكن إخفاؤها، فإن هذه الجرائم قد تستمر سنوات دون أن يحس بها حتى الجيران الذي يعيشون قريبًا منها. وما يحدث في واقع الأمر أن مثل هذه الجرائم قد تُكتشف بمحض الصدفة، وهذا ما حدث بالضبط مع المصارع هاردبوي نوريس.

غالبًا ما كان نوريس يصطحب المتدربات لديه لشراء ملابس المصارعة التي تبرز مفاتنهن وتجذب الانتباه لهن. وأبلغ النساء أن عليهن عدم الانزعاج من العيون التي تلاحقهن عند سيرهن في الشوارع.

في إحدى هذه الزيارات إلى أحد المجمعات التجارية في أغسطس 2004، اتخذت الأحداث مسارًا مغايرًا عندما انفصلت إحدى النساء عن مجموعتها، وذهبت إلى سيارة شرطة. وهناك، أبلغت الضابط الموجود فيها أنها مع امرأتين أخريين محتجزات ضد إرادتهن، وأن نوريس يجبرهن على العمل مومسات.

عندما فتحت الشرطة تحقيقًا في هذا الادعاء، أنكر نوريس والنساء اللواتي عينهن قادة فرق هذه التهم. أخذت الشرطة النساء الثلاث، وتظاهرت باعتقالهن لإبعادهن عن نوريس. وقد استغرق التحقيق في نشاطات نوريس سنة كاملة، وشارك فيه عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، وكذلك ضباط من دائرة الشرطة في سميرنا، إحدى ضواحي مدينة أتلانتا.

في بداية الأمر، اعتقدت الشرطة أنها وضعت الضحايا جميعهن في الحجز الاحترازي حفاظًا على حياتهن، بانتظار جمع مزيد من الأدلة. ولكن، لم يكد يمر عام على الحادث الأول حتى استطاع نوريس استدراج ضحيتين جديدتين بالانضمام إلى فريق المصارعة، مع وعود كاذبة بالشهرة والغنى. إلّا أن القضية شهدت تطورًا آخر مفاجئًا؛ عندما استطاعت إحدى النساء قطع غطاء الحماية

والزحف عبر نافذة الحمام، ومن ثمَّ الهرب من الأسر. أسرعت المرأة الهاربة إلى الشرطة وأبلغتهم أن نوريس وخمسة من المتواطئين معه يحتجزون امرأة أخرى في المكان الذي هربت منه. وفي نهاية المطاف، تمكنت الشرطة من تحديد هوية تسع نساء، رفض بعضهن التقدم بشكوى إلا بعد الإعلان عن القضية.

وعن ذلك تقول سوزان كوبيج: غالبًا ما تكون مثل هذه القضايا مليئة بالمنعطفات غير المتوقعة. كنا على وشك توجيه اتهام لنوريس والمتواطئين معه، إلّا أننا لم نكن نعرف مدى انتشار نشاطه. ولكن بعد اعتقاله مباشرة، بدا لو أن بوابة نهر قد فُتحت على مصراعيها؛ فتدفقت الأدلة من كل حَدَب وصَوْب.

ما حدث بعد ذلك هو اكتشاف عالم متشابك من السيطرة والتحكم. وقد وجهت الحكومة إلى نوريس ثمانية وعشرين اتهامًا بممارسة نشاط إجرامي، منها التآمر، والاتّجار بالبشر، وأعمال السخرة، والتلاعب بالشهود.

لقـد استطاع نوريســ من خلال التمويه بتدريـب الرياضيين تشكيل شبكة من المومسات اللواتي أحببنه وكرهنه في آن معا. وقد وجد أنه احتفظ بسجلات قوانينه الخاصة بالنساء، والتي أشار إليها بالوصايا العشر. كما كلّف قادة الفرق - اللواتي اعترفن بأنهـن يعشقن نوريس، وأقمن معه علاقة جنسية- بالسيطرة علـى ضحايا أُخر. وكان يطبق نظامًا للعقوبات والمكافآت ضمن سياسة الضبط والربط، ومن ذلك تغريم من تعارضه خمسين دولارًا، وتحديد عدد المرات التي علـى المومسـ أن تبيع فيها جسدهـا للزبائن. أما المرأة التـي تتخطى الحصة اليومية المحددة لها فكانت تربح ليلة للمبيت في «مقر الجنرال» وهو عبارة عن غرفة نوم يتقاسمها نوريس مع المرأة التي تفوز بهذه الليلة.

جاء اهتمام هاردبوي بالتفاصيل والانضباط لغير صالحه؛ إذ إنه سهّل من مهمــة الحكومة في توجيه الاتهام إليه، ومن ذلك كشْف بالديون المستحقة على النســاء، إذ كان يتقاضــى منهن بدل إيجار كل شهر، وأثمــان الطعام والملابس والتدريب، وأي مصاريف أخرى تخطر بباله.

كان ذلك في بداية مشروع التدريب، مما جعل النساء يتحملن ديونًا كبيرة. ولكن كيف يمكن لامرأة مقيدة الحركات ردّ هذه الديون. كان الجواب عند نوريس: أن تمارســ الدعارة القسرية. في عطلة نهايــة كل أسبوع، كان يحشر النساء في عربة، وينقلهن إلى نادٍ ليلي لصديق له يرتاده رجال من أمريكا اللاتينية. وفيه، يُرغمــن على الرّقص وخدمة الزبائن، في حين كان الجنرال يأخذ منهن النقود التي جمعنها، ويضعها في خزنة خاصة به.

حــاول نوريســ أن يدافع عن نفســه أمام المحكمة، فأنكــر التهم الموجهة إليــه، وأن النساء اللواتــي اعتنى بهن تمتعن بصحة جيــدة، ولياقة وحيوية، ولم يتعاطين المخدرات.

تعتـرف كوبيج أن شخصيـة نوريس مثلت تحديًّا للنائـب العام. وعن ذلك تقول: ومع أننا كنا واثقين من التحقيق والأدلة التي جمعناها ضده، إلا أن القضاة يميلون إلى إعطاء الناس الذين يدافعون عن أنفسهم حرية في المرافعة أكثر مما يعطونهـا لمحام محترف. قلنا للضحايا إن نوريس سوف يستجوبهن، وهي فكرة كانت مخيفة لكثيرات منهن.

وبالرغم من جاذبيته، إلا أن نوريس فشل في كسب القضية. وعليه، أصدرت المحكمة الفدرالية أقسى حكم يصدر على تاجر رقيق قبل عام 2005، وهو السجن مـدى الحياة. وقد أشار القاضـي إلى ذكاء نوريس وحنكتـه التجارية، وهذا في الحقيقة ما جعل القاضي يصدر أقسى حكم عليه. ومما قاله القاضي: كان ممكن لـه أن ينجـح في أي مشروع شرعي يقوم به، ومـع ذلك فقد اختار أن يكون تاجر رقيق ومستغلا للبشر.

لقـد كانت ضحايا نوريس جميعهن مواطنات أمريكيات راشدات - عبدات أمريكيات - وأنقذهن نظام قضائي أمريكي فريد.

الجوقة الغنائية الزامبية: عبودية في الكنيسة

اعتقـدت ساندي شيبرد أنها تقوم بعمل صالح يقرّبها إلى الله، فقد قامت بدور بارز في إحضار جوقة غنائية زامبية إلى كنسيتها المعمدانية. كان أعضاء الجوقـة ينتمون إلى عائلات فقيرة في زامبيـا، ذلك البلد الإفريقي الذي يفتقر إلى أي منفذ بحري.

بـدأت الحكايـة عندما كوّن قسّ يُدعى كيث غرايمـز خدمة كنيسة سمّاها «تعليـم المعلميـن كيفية التعليـم» لخدمة رعايـا الكنيسة علـى جانبي المحيط الأطلسـي. وكانـت الفكرة هي جعل مرتادي الكنيسة يتأثـرون عند سماع أطفال

أفارقــة يترنمون في مديح المسيح، مما يجعلهم يتبرعون لتمويل مشاريع تربوية في زامبيا.

عندما كان القسّ يختار الأطفال لتكوين الجوقة، كان يبلغ أولياء أمور الأولاد أن التبرعات الأمريكية سوف توظّف لتمويل مدارس محلية في زامبيا. يضاف إلى ذلك أن الأولاد سوف يتلقّون راتبًا كنسيًّا لتحويله إلى ذويهم. وكان يقول للأهالي في أثناء جولاته إن العاملين معه سوف يعلّمون هؤلاء الأولاد الذين سيكونون أول من يلتحق بالمدارس المبنية حديثًا.

أحضر القس غرايمز أول جوقة أولاد إلى الولايات المتحدة في عام 2003، وأعـدّ لهم جولة تستغرق ثلاثــة أشهر. وقد بلغت الإيرادات مــن التبرعات وبيع الأقراص المضغوطة الخاصة بعروض الأولاد نحو ربع مليون دولار. كان هذا المبلغ أكثر مما حلم به هذا القسّ، مما جعله يمدد الجولة لمدة نصف عام إضافي دون موافقة الأولاد أو أولياء أمورهم. وكانت الحصيلة المالية مذهلة. بعد عودة فريق الجولة الأولى إلى زامبيا، قرر القسّ غرايمز تشكيل جوقة أخرى. واستطاع خلال الفترة من 1993 — 2000 تشكيل خمس فرق من زامبيا، وفريق سادس من ليبيريا كان يضــم أطفالا أكفياء. استقبلت العائلات مــن رعايا الكنيسة هؤلاء الأطفال بحفــاوة كبيرة. وفي الفترة الفاصلة بين الجولات، كان الأطفال يقيمون في مقر برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم» الواقع في منطقة ريفية في ولاية تكساس.

فــي أحد الأيــام، حضرت ساندي وهي أم لثلاث بنــات من مدينة كوليفيل لتعرضــ استضافــة بعض الأولاد، بعــد تقديم الفرقة أول عرضــ لها في كنيسة كوليفيل المعمدانية. تشوقت ساندي إلى زيارة زامبيا بعد سماعها ترانيم الفرقة الموسيقيــة، ووصف القس غرايمز لحيــاة البؤس والفقر في زامبيا. وقد تناولت العشــاء مع هؤلاء الأولاد فــي منزلها. ولذلك، لم تتردد في الانضمام إلى وفد من

الكنيسة لزيارة زامبيا، والإطلاع شخصيًّا على أحوال المنطقة التي جاء الأولاد منها، والموقع المخصص لإنشاء المدرسة الجديدة.

كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها القسّ غرايمز يمارس العمل الميداني. كان قسًّا أبيض، يرتدي قميصًا نظيفًا، وربطة عنق مما زاد من مصداقيته، كما أنّه أسر قلوب الفلاحين الزامبيين بأسلوبه الرّقيق والجذاب. ولاحظت ساندي شعور الفخار عند الآباء الذين يختار القس أبناءهم للانضمام إلى الجوقة الموسيقية. وقـعّ أولياء الأمور وثائق مكتوبة باللغة الإنجليزية التي لا يفهمونها، ولكنهم كانوا على ثقة بأن القسّ سوف يعتني بأبنائهم.

فـي أثناء زيارة الجوقة الأولى إلى كولينيل، ظل الأولاد الذين استضافتهم ساندي صامتين طوال الوقت، فاعتقدت أن هذا تصرف طبيعي من أطفال جاؤوا إلى بلد، هم فيه أغراب.

لم تكن ساندي تظن أن في الأمر ما يريب. ولكنها لم تكن تعلم أن العاملين في المشروع قد هددوا الأولاد بالتزام الصمت التام عن حياتهم في الجوقة، وإذا ما قدمت إليهم العائلة هدايا، فعليهم تسليمها إلى قادة الفرقة.

بعـد عودة ساندي من زامبيا، قدّم الأولاد عددًا من العروض في كنيستها، وأخذوا ينفتحون تدريجيًّا ويبوحون ببعض المعلومات التي أقلقت مضيفيهم. قال الأولاد إن العامليـن في المشروع كانوا يراقبـون رسائلهم من زامبيا وإليها، كما منعوهم من إجراء مكالمات هاتفية مع ذويهم. كانت الجوقة تقدم أربعة عروض يوميًّا فـي المجمعات التجاريـة، والكنائس، والمدارس. وكانـوا في بعض الأيام يقدمون ثمانية عروض. كما اعترفوا بأن القس غرايمز كان يهدد أي طفل مريض أو مرهق بإعادته إلى زامبيا، مما يجعله مصدر عار بالنسبة لوالديه. كما كشفوا أنهم يعيشون في ظروف سيئة لأن المسؤولين عن المشروع لم يدفعوا لهم الهبات النقدية التي وعدوهم بها البتة.

عندما اتصلت ساندي بالقس معربة عن قلقها، رد عليها بغضب شديد. وهذا جانب لم تعرفه عنه في أثناء جولتها الميدانية معه في زامبيا. ولم يؤد نفيه وإنكاره الشديدان إلاّ إلى زيادة شكوكها، ولذلك اتصلت بسلطات تطبيق القانون، وطلبت إجـراء تحقيق في الأمر. وعن ذلك تقول: إننــي أتعاطف مع العائلات الزامبية. لــم يكن يخطر ببالي أن رجل ديــن، يتستر وراء مشروع كنسي، يمكن أن يستعبد أطفالا صغارًا من أجل جمع التبرعات. وهي تعترف بأنها في ذلك الوقت لم تكن تعــرف الكثير عن الاتّجار بالبشر. ولذلك، فقد تحدثت إلى العملاء الفيدراليين عن هذه القضية الواضحة المتعلقة باستغلال الأطفال.

أجرى ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي تحقيقًا في قضية مشروع «تعليم المعلمين كيفية التعليم»، ولكنهم ردوّا اتهامات أعمال السخرة والاسترقاق لأنهم لم يعثروا على أي آثار للأصفاد أو كدمات على أجسام الأطفال. وقد شرح القس مهمة الجوقة أمام العملاء الذين اقتنعوا بدوافعه. كما أن القس أظهر لهم عقودًا موقعة مــن العائلات الزامبية تعطيــه حق الوصاية الشرعية علــى الأولاد داخل الولايات المتحدة.

وبالرغــم من هذا الفشل، إلا أن ســانــدي استمرت في مساعيها، فاتصلت بسلطات تنفيذ القانون في تكساس لدى دائرة الهجرة والتجنيس ومكتب النائب العام. ولكن هذه الجهود جميعها لم تؤدِ إلى نتائج ملموسة أيضا.

في عــام 1998، عادت جوقــة الأولاد الذين توثقت علاقتهــم بساندي إلى إفريقية. في هذه الأثناء سمعت ساندي أن القس غرايمز قد شكّل جوقة جديدة تضم 67 طفلا زامبيًّا، لكنها لم تعد تحتمل الحديث عن مشروع «تعليم المعلمين كيفية التعليم»، فتراجع حماسها لرفع شكوى قضائية أخرى.

مــن جانبهم، سعــى المسؤولون عــن المشروع إلى تجنــب كنيسة كوليفيل المعمدانية، كما أن القس غرايمز حذّر الأطفال من وجود كنيسة شيطانية هناك،

وأمرهم ألا يقبلوا أي دعوة من عائلات المدينة. وأخافهم بقوله: إذا ذهبتم إلى تلك الكنيسة، فإنهم سوف يغررون بكم، وسوف تتعرضون للإساءة؛ إنه صوت الذئب الذي ينصح الشياه أن تحذر الدجاج.

افتضاح العبودية

في أغسطس 1995، اقتحمت قوة فيدرالية مجمعًا سكنيًّا يضم ثماني شقق، محاطًا بأسلاك شائكة في حي إلمونتو في لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا. وهناك، عثرت على 72 امرأة يعملن في صناعة الملابس، محتجزات أسرى في المجمع منذ سبع سنوات. وتبين من التحقيقات أن تجار الرّقيق جمعوا هؤلاء النساء من المناطق الفقيرة والريفية في تايلاند، ووعدوهن بوظائف في صناعة الملابس تدر دخلا مجزيًا. وعند وصولهن إلى لوس أنجلوس، أخذ تجار الرّقيق جوازات سفرهن وقالوا إن عليهن دفع تكاليف إحضارهن من تايلاند إلى الولايات المتحدة.

كان مصنع الخياطة موجود في مرآب المجمع السكني، وكانت المَكِنات مصفوفة على طاولات بتراصّ بصورة لا تسمح بحرية الحركة، كما أن المكان يفتقر إلى التهوية الصحية، في حين كانت النوافذ مغطاة بملصقات جدارية تحجب الرؤية. أما غرف النوم فمليئة بالصراصير، ولا يوجد فيها أي أثاث، وإنما مجرد فُرُش ملقاة على الأرض. كانت الملصقات تمنع دخول أشعة الشمس. وكانت كل عشر نساء ينمن في غرفة واحدة لا تتسع أساسًا لشخصين. إضافة إلى هذا المصنع، كان تجار الرّقيق يديرون مصنعي خياطة آخرين في المنطقة الصناعية المكتظة في لوس أنجلوس. كانت بعض النساء التايلانديات يعملن في مصنع المرآب، في حين كانت النساء الأخريات يُنْقَلْن يوميًّا إلى هذين المصنعين، وكنّ يعملن في نوبات عمل تمتد 16 ساعة تحت رقابة مشددة من حراس مسلّحين.

كان تجــار الرّقيق يدفعون إلــى أولئك العاملات 27 سنتًــا في الساعة، ثم يستردوا تلك النقود مباشرة لتسديد الدين الذي عليهن. ونظرًا لأنهم لم يكونوا يسمحــون للعاملات بمغــادرة المجمع دون حراسة، فقد أنشــأ تجار الرّقيق لهن مخزنًا للمنظفات والمواد الغذائية الضرورية. فيه، قطعة الصابون تباع بعشرين دولارًا وكيس الأرز بعشرة.

بعد اقتحام هذا المجمع، قال وزير العمل الأمريكي آنذاك روبرت رايخ: إن هذه القضية هــي أسوأ قضية عبودية في التاريخ الأمريكي الحديث(3). وبالرغم مما قاله الوزير، إلا أن القوة التي اقتحمت المكان عاملت النساء كوافدات بطريقة غير شرعية. ولم يكف معاناتهن في الأسر مدة سبع سنوات، بل تمّ الزّجّ بهن وراء القضبــان، وإرغامهن على ارتداء ملابــس السجون. وكانت هذه المعاملة رسالة تخويــف للعبيد في الولايــات المتحدة كافة. كما أنّها جــاءت دعمًا لتحذير تجار الرّقيق ضحاياهم: بلغوا السلطات عنا، وسوف تسجنون أنتم لا نحن.

انبــرت مجموعات لحقوق الإنسان ومن الجاليات الآسيوية في مدينة لوس انجلوس بالدفاع عن النســاء المُحتجزات، وجمعت لهن تبرعات لدفع كفالاتهن الماليــة. ولكن تبيّن لهذه المجموعــات بعد ذلك عدم وجود منظمة تستطيع دفع تكاليــف الرعاية الصحيــة، والقضايا القانونيــة، والاحتياجــات اليومية لهؤلاء النســوة. وفي الأشهــر اللاحقة، اتفق مركز تطوير الجاليــة التايلاندية، ومركز طوكيو للخدمات، وأساتذة جامعات، ومجموعات المساعدة القانونية على تشكيل تحالف لإلغاء العبودية والاتّجار بالبشر، وأُعلن عنه رسميًّا في عام 1998.

قانون

أحــدث اكتشاف حالة العبودية هذه صدمة داخل المجتمع الأمريكي، ليس لبشاعتهــا فحسب، بل لأن أكثر من سبعيــن امرأة اُحتُجزن مدة سبع سنوات في

حـــي سكني، دون أن يثرن انتبــاه أحد. وأثارت المحاكمــات التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة قلقًا في الدوائر السياسية والقانونية، ودقّت ناقوس الخطر للتنبيه بــأن الولايات المتحدة تفتقر إلى التشريعــات الرادعة لمحاربة الاتّجار بالبشر، وتوفير الحماية للضحايا، وبخاصة الأجانب منهم، الذين يُتّهمون بمخالفة قانون الهجرة، ومن ثَمَّ يُسجنون ويُرحّلون إلى مناطق شديدة الخطورة.

مارس نشطاء تحالف إلغاء العبودية والاتّجار بالبشر، وعدة منظمات غير حكومية، ضغطًا على المُشرِّعين لوضع قانون يحمي حقوق الضحايا، ويركزّ اهتمام سلطــات تنفيذ القانون على ملاحقة المجرميــن الحقيقيين. كما حثوا الحكومة الأمريكية على تقديم خدمات لتمكين هؤلاء الضحايا من استرداد عافيتهم البدنية والنفسية.

واستجابة لهذه الضغوط، أقر الكونجرس الأمريكي في نهاية عام 2000 قانون حماية ضحايــا الاتّجار بالبشر، بهدف واضح هو: ضمان محاكمة تجار الرّقيق، وإصــدار عقوبات رادعة ضدهم، وحمايــة ضحاياهم. والأهم من هذا، اعتراف القانون بأن الاتّجار بالبشر مشكلة أمريكية داخلية ومشكلة عالمية في وقت واحد.

وقــد وفر القانــون الجديد لسلطات تنفيذ القانــون أدوات أفضل لمحاكمة المجرمين المتورطين في الخدمــة القسرية، والاتّجار بالنساء للجنس، وأعمال السخرة. وبناء على هذا القانون، فإن الاتّجار بالبشر لأي من الأغراض السابقة يعدّ جناية، عقوبة مرتكبها السجن عشرون عامًا، وقد تصل العقوبة إلى السجن المؤبــد فــي القضايا التي تشمــل إساءة جنسيــة شديدة، أو اختطافــا، أو قتلا. واستحــدث القانون فئة جديدة من تأشيرات الدخول – فئة ت – خاصة بضحايا الاتّجار بالبشر الذين جلبوا إلى الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية، أو إبقائهم فــي الولايات المتحــدة إذا ما تأكد أن هؤلاء الضحايا قــد يتعرضون إلى متاعب قاسية، تتضمن أذى شديدًا في حال إعادتهم إلى بلدانهم الأصلية. وهناك شرط

آخر للحصول على هذه التأشيرة، وهو تعاون الضحايا مع سلطات تنفيذ القانون ضد المسؤولين عن استرقاقهم. ويستطيع الأشخاص الحاصلون على هذه الفئة من التأشيرات التّقدّم بطلبات للحصول على إقامة دائمة بعد مرور ثلاث سنوات مـن حصولهم عليها. كما يستطيع الضحايا الذين تقل أعمارهم عن 21 سنة أن يتقدموا بطلب استقدام والديهم أيضًا.

كما خـوّل القانون وزارات حكومية محددة تطبيـق آليات جديدة لمحاربة الاتّجـار بالبشر. وكما أشرنا في الفصل الرابـع، فقد أوكل إلى وزارة الخارجية الأمريكية مهمة إنشاء مكتب لمراقبة هذا النوع من التجارة على المستوى العالمي، ورفـع تقرير سنوي إلى الكونجرس، يوضح أداء الحكومات المختلفة في محاربة هـذه التجارة ضمن حدودها. كما أوكل إلـى وزارة الصحة والخدمات الإنسانية مهمـة رفع الوعي داخل المجتمع الأمريكي حول هذه الظاهرة، وشمول الضحايا في الخدمات التي تقدمها الوزارة.

وقد أوجد هذا القانون وضعًا قانونيًّا جديدا يشعر فيه الناجون من الاسترقاق بالأمـان عند الكشف عن هوياتهـم لسلطات تنفيذ القانـون، وبأنهم لن يقدموا للمحاكمة، إضافة إلى استفادتهم من الخدمات الاجتماعية المخصصة تحديدًا لمساعدتهم. وبالرغم من هذا الإطار القانوني القوي، إلا أن جهود مكافحة الاتّجار بالبشر منذ إقرار القانون في عام 2000، ما تزال خجولة. وقد صدرت حتى الآن تأشيرات من فئة ت أو إقامات دائمة لأقل من ألف فقط من هؤلاء الضحايا. وهذا رقـم متواضع مقارنة بعشرات الآلاف من الأشخاص الذين هُرّبوا إلى الولايات المتحدة منذ عام 2000.

أما البيانات المتوافرة حول نجاح محاكمات تجار الرّقيق، فتبدو متواضعة أيضا مقارنة بحجم النشاط الإجرامي. ففي عام 2005، جرت محاكمة 95 متهمًا،

وجهت إلى 97% منهم اتهامات بانتهاك قانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر، وهذا العدد يعادل ضعف عدد المتهمين الذين حوكموا في عام 2004[4].

وقد توصلت السلطات الفيدرالية والمحلية في السنوات الأخيرة إلى استنتاج صحيح مفاده أنها لا تستطيع محاربة تجارة الرّقيق وحدها دون تعاون من المجتمع والجهات المعنية. ونتيجة لذلك، تكاثرت في الفترة الأخيرة شراكات مجتمعية في أنحاء البلاد قاطبة من أجل ربط المنظمات الأهلية غير الحكومية المتخصصة في محاربة الاتّجار بالبشر مع مقدّمي الخدمات الصحية والاجتماعية وإدارات الشرطة المحلية.

آنا رودريغيس؛ إبطال السحر

عندما وقّع النائب العام جون أشكروفت قانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر في مؤتمر صحفي في واشنطن، وقفت آنا رودريغيس وشيكا غارسيا Chica Garcia خلفه في مكان بارز. وللمفارقة أن كلتا المرأتين لم تكونا قبل سنتين على علم بوجود تجارة رقيق في العصر الحديث. أما الآن، فهما في مقدمة المطبّقين لقانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر.

في عام 1999، التقت المرأتان بمحض الصدفة. كانت آنا تعمل في مكتب عمدة مقاطعة لولير في ولاية فلوريدا - التي تضم منطقة إيموكالي الزراعية الخصبة - محامية لضحايا الجريمة، وكثيرًا ما كان يطلب إليها المساعدة في قضايا العنف المنزلي.

في صبيحة أحد الأيام، أبلغها مكتب العمدة بوقوع اعتداء في حي مزدحم بالعمال المهاجرين. كان شرطة المكتب قد ردّوا على نداء استغاثة في اليوم السابق، وعند وصولهم المكان، وجدوا امرأة غواتيمالية معتدى عليها. أخبرتهم كيف أنها عادت إلى البيت فوجدت زوجها في السرير مع الخادمة المنزلية. وقد

اعتدى عليها الزوج بوحشية عندما احتجت على فعلته. لكن الغريب هو أن مكتب العمدة لم يكترث بالأمر، ولم يكلف أحدًا بالتحقيق مع الخادمة، وبدلا من محاولة حل هذا النزاع الزوجي المعقد، أحال المكتب القضية إلى آنا لدراستها.

عندما زارت آنا البيت، قابلت الزوجين كلّا على حدة. وعندما طلبت التحدث إلى الخادمة، أصبح الزوج عصبيًّا جدًا، ولكنه لم يستطع رفض طلبها. تزايدت شكوك آنا، فأخذت الفتاة الشابة جانبًا لتتحدث إليها على انفراد. قالت الفتاة إنّها تدعى شيكا، وأن عمرها 15 سنة، وأن صاحب البيت اختطفها قبل ستة أشهر من قريتها التي يرأس أخوه مجلسها، ثم نقلها على حافلة للركاب عبر الحدود الأمريكية - المكسيكية، ومن ثَمَّ عبر جنوب الولايات المتحدة وصولاً إلى فلوريدا، وأنها تعيش الآن مع مختطفها وزوجته وأطفالهما.

قالت الفتاة أيضًا إنها كانت تعمل فلاحة في الحقل نهارا وجارية للجنس ليلا. كان تاجر الرّقيق هذا يجبرها على العمل في حقول الطماطم، ويظل لصيقًا بها ليتأكد أنها لن تتواصل مع عمال الحقل الآخرين. كما ادعى الرجل أن إحضارها إلى الولايات المتحدة كلفه ألفي دولار، ولذلك فإنه سيحتفظ برواتبها إلى حين استرداد ما دفعه. وبالنسبة إلى الزوجة فقد كانت تعمل في المساء، مما يعطيه الفرصة لاغتصابها.

أصيبت آنا بالذهول، لقد سبق لها وأن تعاملت مع قضايا كثيرة تتعلق بالإساءة الجنسية والعنف المنزلي، ولكن الحالة التي أمامها عبارة عن عبودية صريحة. وبالرغم من ذهولها، حافظت آنا بهدوئها، وواست شيكا، وقالت إنها ستوفر لها مأوى على الفور. ولشدة دهشة آنا، رفضت الفتاة مغادرة المنزل بشدة.

أبلغت آنا مكتب العمدة بجريمة الرجل، فاعتقلته، ووضعته في السجن. عادت آنا إلى المنزل عدة مرات في الأسبوع التالي، وحاولت إقناع شيكا بمغادرة المنزل والإقامة في مركز إيواء، لكن الفتاة كانت مصممة على رفض هذا العرض. وبعد

أن توثقت عرى الثقة بينهما، بدأت آنا في كشف الغموض؛ توصلت إلى معرفة أن شيكا كانت في 19 من عمرها، في حين أمرها الرجل أن تقول إن عمرها 15 عامًا حتى يظن الناس أنها ابنة أخيه. وبعد ذلك، عرفت سبب سيطرة الرجل عليها بهذه الطريقة. أخبرتها شيكا بأن الرجل أخذ خصلة من شعرها، وطلب إلى أحد السحرة أن يربطها به، وهذا مُعتقد شائع في مناطق كثيرة في أمريكا اللاتينية؛ بأنه إذا ما حاولت الهرب، فإن عائلتها سوف تقع في مصيبة، ولهذا فهي تخاف مغادرة المكان حتى لا تحل اللعنة على أسرتها.

عندما فتشت الشرطة محفظة الرجل، وجدت خصلة الشعر في المكان الذي وصفته شيكا بالضبط. في زيارتها التالية، لجأت آنا إلى الخديعة للحصول على مساعدة الفتاة. قالت لها إنها عادت للتو من زيارة السجن، وإن الرجل قد تنازل عن خصلة الشعر، وسامحها بالنقود التي تدين له بها.

عندئذٍ، اقتنعت شيكا أنها قد تحررت من السحر، فوافقت على مغادرة المكان. وكانت أول من حصل على تأشيرة من فئة ت في الولايات المتحدة. مرّت الأيام، تزوجت شيكا، وأنجبت ثلاثة أطفال من بينهم طفلة اسمها آنا.

لويس ايتونوي؛ تجاوز المحنة

بعد نجاحه في جمع أدلة الجريمة في الكاميرون، وعودته إلى الولايات المتحدة، وجد لويس مصائب كثيرة في انتظاره. لقد اكتشف تجار الرّقيق الشخص الذي سهّل هروب الفتيات، فبدؤوا يتصلون ببيته هاتفيًّا ويهددونه. كما تلقى مكالمات غاضبة من مواطنين كاميرونيين يعيشون في الولايات المتحدة اتهموه فيها بتلطيخ سمعة جاليتهم. قال له أحدهم: لِمَ لا تدع الأمور على حالها؟ أنت تعرف أن هؤلاء البنات كنّ يعانين من الفقر والبؤس في الكاميرون، وحالهن الآن أفضل بكثير مما كنّ فيه.

وفي الوقت ذاته، ضاقت زوجته ذرعًا بالمأساة التي تعيشها العائلة منذ قدوم البنات الهاربات، ناهيك عن تكاليف الأكل، والرعاية الصحية، والاستشارات القانونية. كما تردى وضعه المالي لدرجة أن سيارته عندما تعطلت في إحدى زياراته لدائرة الهجرة والتجنيس، لم يجد نقودا لإصلاحها. وازداد الوضع سوءًا عندما أصرت زوجته على إنهاء هذا الموضوع بأسرع وقت ممكن.

في منتصف عام 2002، بلغت مشاكله ذروتها عندما عاد إلى البيت ووجد عدة سيارات للشرطة تقف أمام المنزل. أخبرته الشرطة عن تلقيها معلومات تشير إلى أنه يأوي مهاجرات غير شرعيات وبأنه قد حوّل بيته إلى ماخور للدعارة. عرف لويس أن مصدر هذه المعلومات هم تجار الرّقيق الذين بعثوا برسائل تشهّر به إلى وكالات الخدمة الاجتماعية ودوائر الشرطة.

هددته الشرطة بوضعه والبنات وراء القضبان. ولكن، لحسن الحظ أنه احتفظ بسجل دقيق وموثق لكل ما قام به نيابة عن البنات، كما احتفظ بهواتف وعناوين المحامين وضباط القانون الذين قالوا له أن باستطاعته الاتصال بهم في أي وقت إذا ما احتاج إلى مساعدة. اتصل رجال الشرطة بهواتف المصادر التي أعطاها لهم، فأكدوا للشرطة أن لويس من الناس الشرفاء.

في أعقاب اقتحام الشرطة المنزلي، نشرت الصحيفة المحلية استطلاعًا صحفيًّا عن أنشطة لويس وأشادت بتضحياته في تحرير الفتيات المُسْتَعْبدات، ثم أخذ الجيران يتوافدون على بيته لتهنئته، واعترفوا له أن هناك من طلب منهم مراقبة تحركاته. وقال أحدهم: لقد عرفنا الآن سبب مجيء محققين كثر إلى بيوتنا وسؤالهم عنك.

بعد غارة الشرطة، تلك، على بيته، أخذت الأمور مسارها الصحيح؛ حيث اعتقل تجار الرّقيق، وقدّموا للمحاكمة. وعندما شاهدت هيئة المحلفين الشريط المصور الذي التقطه لويس لأولياء أمور البنات. واستمعت إلى شهاداتهن، أدانت

المجرمين بجريمة الاختطاف والاعتداء الجنسي. وحصلت الفتيات على الإقامة في الولايات المتحدة، وتزوجن، والتحقت كل منهن بعمل، وما يزلن على اتصال منتظـم مع عائلاتهن في الكاميرون. أما لويس، فلـم يتوقف عند هذا الحد، بل نجح فـي إنقاذ ثلاث فتيات أخريات كن أسيـرات الاسترقاق المنزلي، ولا يزال يعمـل على حل قضايـا أخرى. إنه يقول: لا أريد جائزة أكبر مما حققته، فحياتي أصبحت ذي معنى بعد إنقاذ هؤلاء الفتيات.

العبودية في ظلال البيت الأبيض

بدأت خبرة مشروع بولاريس بعشرات الحالات في محيط العاصمة الأمريكية واشنطـن. اكتشـف ديريـك وكاتريـن أن العبودية ظاهرة خطيـرة، وهي ليست مقصورة على الصين، وتايلاند، ونيبال، وأوكرانيا والدول الفقيرة الأخرى فقط، وإنما هناك شبكات قوية للاتجار بالبشر تعمل داخل الولايات المتحدة وتمتد إلى مراكز التدليك القريبة من البيت الأبيض.

تمثل المواطنات الأجنبيـات اللواتي يساعدهم مشروع بولاريس ما يقارب نصـف عبيد الجنس في منطقـة العاصمة واشنطن، في حيـن تمثل المواطنات الأمريكيـات النصف الآخـر. وتدين الضحايا جميعهن إلى حـد ما بالفضل إلى تينا فروندت التي هبّت لنجدتهن في أحلك أوقات حياتهن.

سبـق لتينا وأن عملت لسنوات في إنقاذ ضحايا عبودية الجنس من شوارع مدينة واشنطن، بصفتها منسقة لبرنامج التوعية التثقيفية، وكذلك بسبب موقعها الحالي مديرة لمركز كورتني، وهو منظمة تعنى بتقديم الرعاية إلى اللواتي تحررن من العبودية. وما يقلق تينا هو أن الأمريكيين ما يزالون يعتقدون أن الاتجار بالبشر يحدث فقط للنساء والأطفال خارج الولايات المتحدة. وعن ذلك تقول: «المشكلة عندنا هي أننا عندما نعرف حالة امرأة أجنبية من ضحايا الاتجار بالبشر فإننا

نتعاطف مع معاناتها، ولكننا عندما نقابل فتاة أمريكية في الشارع، فإننا نتعجب ونتساءل: لِمَ اتخذت هذا الطريق؟ إنها قادرة على الانسحاب في أي وقت تريد. إننـا نقول ذلك لأننا نجهل حقيقة الوضع». توضـح تينا أن أعمار معظم ضحايا الاتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة تتراوح بين 12 — 14 عامًا، وهنّ لا يبعن أجسادهـن طواعية. وهي تسـأل الذين يعتقدون أن فتيـات الشوارع الأمريكيات يفعلـن ذلك بمحض إرادتهن: «كم عـدد البنات اللواتي تعرفهن في ذلك العمر، ويخترن الاعتداء عليهن جنسيًّا عشرات المرّات في الليلة الواحدة؟»

يمكن لأي واقعة اتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة أن تأخذ عدة صور، كأن يختطـف تجار الرقيق الأطفال وينقلونهم إلى منطقة داخل البلاد، أو شراء الطفـل من والديـن مدمنين على المخدرات. وربما يصاحـب القوّادون الفتيات الصغيـرات متظاهرين أنهم يبحثون عن صداقة، ثـم يجبرونهن بعد ذلك على ممارسة البغاء التجاري. كما أنهم يرتادون نوادي العراة وسجون الأحداث بحثًا عن ضحايا جدد.

تســرد تينا قصة حادثة وقعت في مطلع عام 2006. اتصلت فتاتان – عمر إحداهما 18 سنة والأخرى 19 سنة – برقم الطوارئ من حمّام أحد فنادق واشنطن. وقـد فتحتا رشاش الحمّام كي لا يسمعهمـا القوّاد ومحظيته اللذان يشاطرانهما الغرفة وهما يجريان المكالمة.

غالبًا ما يختار القوّادون إحـدى النساء محظية لهم، ويستخدمونها طُعْما لاصطياد الضحايا، وهي محط ثقته بعد معاشرتها مدّة طويلة. كما أنها غالبًا ما تقـوم بالأعمال القذرة التي لا يستطيع القيام بها وحده. طلبت تينا من الفتاتين المذعورتيـن البقـاء في الحمّام، واتصلـت بدورها بالشرطـة، وسبقتهم لتكون بانتظارهم عند الفندق. اتصلت تينا برقم الهاتف المحمول، وطلبت إلى البنتين أن يسألا القوّاد إن كانتا تستطيعان شراء ماء غازي من ثلاجة البيع الآلي الموجودة

خارج غرفة الفندق. بعد خروج البنتين، اقتحمت الشرطة الغرفة واعتقلت القوّاد ومحظيته.

وبعد إطلاق سراح الفتاتين، عرفت تينا مزيدًا من التفاصيل عن قصتهما؛ تعيش الفتاتان في مدينة مدويست، وكانتا تعرفان تلك المحظية منذ مدة طويلة. آنـذاك، طلبت إليهما إسداء معروف لها. وهو اصطحابها مع صديقها بعد عطل سيارتـه، حيث كانت تلك المحظيـة مضطرة للذهاب إلـى واشنطن معه بسبب حصولهمـا على عمل جديد هنـاك. وعرضت أن تدفع للفتاتيـن بدل نقلهما في سيارتهما.

اعتبرت الفتاتان هذا العرض صفقة مربحة وفرصة لزيارة واشنطن، ولكن الرجـل أبلغهما حال وصولهما إلى العاصمة أنهما ملك له. ثم دعا عدة أصدقاء لـه إلى الفندق في الليلة الأولى من وصولهما، فتناوبوا على اغتصابهما، ثم قال لهما: «عليكما الاعتياد على ذلك، فهذا ما ستفعلانه من الآن فصاعدًا».

ولحسن الحظ أنه لم يفتش الفتاتين ليعرف إن كانتا تحملان هاتفًا محمولا أم لا. وفي الليلة التي سبقت الاتصال، كانتا مع المختطفين في جولة لمعرفة الحياة في شوارع المدينة. في تلك الجولة، صادفا أحد الأشخاص يوزّع على المارة نشرة لمركز بولاريس. فأخذتا النشـرة، وانتظرتا اللحظة المناسبة للاتصال بالخط الساخن، وهكذا تلقت تينا مكالمتهما.

تعرف تينا تمامًا الصدمة التي يمر بها من يتعرض لاختطاف تجار الرقيق، فهي نفسها أُجبرت على ممارسة الرذيلة عندما كانت في 14 من العمر. حينها، كانـت تعيش في شيكاغو، عندما تقرّب إليها شاب يكبرها بعشر سنوات، وادعى أنه مولع بحبها – وهذه طريقة اصطياد معروفة تُدعى «الولد العاشق». بعد مرور عـدة أشهر على تعارفهما، اقتـرح عليها الهرب بعيدًا عـن والديها. وافقت تينا علـى اقتراحـه، وانتهى بهما المطاف فـي مدينة كليفلاند، حيث قـال لها إنهما

سيذهبان لزيارة بعض أقاربه. في تلك الليلة، جاء إلى الفندق الذي نزلا به عدد من أصدقائه. فطلب إليها صديقها ممارسة الجنس معهم. وعندما رفضت، قاموا باغتصابها الواحد تلو الآخر. وبعد مغادرتهم، قال لها صديقها ببساطة: لم يكن ذلك ليحدث لو أنك استمعت إليّ منذ البداية.

واليوم، تقول تينا للفتيات أو النساء اللواتي تنقذهن: لستن مرغمات على الإفصاح عن كل ما حدث لكنّ، فقد مررت بهذه التجربة شخصيًّا. عندما تقول ذلك، تنفجر الضحية بالبكاء، وينهار الحاجز لمجرد أن شخصًا آخر يشعر بالألم الذي مررت به.

تقول تينا: ما حدث لي قبل 20 عامًا، ما يزال مستمرًا إلى يومنا هذا. إنّها تدرك أن تجار الرقيق سوف لن يتخلوا عن تجارتهم بسهولة؛ إنها تجارة تدرّ عليهم أموالا طائلة. وهي تورد مثالا على ذلك؛ تاجر رقيق في واشنطن كان يحتجز ثلاث شابات في إصطبل، كل واحدة منهن كانت تدرّ عليه 1500 دولار في اليوم، أي 45 ألف دولار في الشهر، أي 540 ألف دولار سنويًّا من خلال بيع هؤلاء الفتيات كل ليلة.

جاء في شهادة لها أمام لجنة لمجلس الشيوخ كانت تحاول معرفة عصابات الجريمة التي تقف وراء تجارة الرقيق الأبيض: إن القوّادين مدلّلون الآن. إنهم لا يخافون الشرطة ولا النظام القضائي، لأنهم يشعرون أنهم محصّنون. وفي الحقيقة أننا نحن الذين جعلناهم كذلك من خلال عدم اعترافنا بوجود المشكلة والعمل على حلها.

الجوقة الزامبية: ترانيم وابتسامات

عندما اختاره القس غرايمز للانضمام إلى الجوقة في عام 1998، كان غيفين كاشيبا يتيمًا، عمره أحد عشر عامًا. توفيت والدته وهو في الصف الثاني،

في حين قضى أبوه بعد عامين. انتقل غيفين وأشقاؤه الخمسة للعيش مع عمتهم مارغريت التي كانت تعيل ستّا من الأطفال.

ولذلك، بدت الوعود التي قطعها القس غرايمز له ولعمته حلما على وشك التّحقّق، فما الذي يتوقعه أكثر من جمع بعض النقود لعائلته الفقيرة، والحصول على مستوى تعليم رفيع في الولايات المتحدة. كما وعد القس بتعميد الأولاد حال وصولهم إلى الولايات المتحدة، وهذا وعد يعني الكثير بالنسبة لمن يتحولون إلى المسيحية في زامبيا. ويشرح غيفين ذلك بالقول: «عندما تكون من بلد فقير، ثم يأتيك شخص من بلد غني ويقول إنه سوف يوفر لك كل ما ينقصك في حياتك، فإنك سوف تعتقد أن هذه هبة من الله لا تُردّ».

يبدو من شبه المستحيل أن يحصل مواطن زامبي فقير على تأشيرة لزيارة الولايات المتحدة، لكن أحد كبار الضباط في شرطة زمبابوي تعاون مع غرايمز لتسهيل عملية إصدار التأشيرات لمئات من أطفال الجوقة. كما يبدو أن هناك مسؤولين حكوميين آخرين كانوا يتلقون أموالا من برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم» لأن القس الأمريكي استطاع تزوير تواريخ الميلاد على جوازات سفر الأطفال. وعندما علم أن المشاهدين الأمريكيين على استعداد للتبرّع أكثر لمساعدة الأطفال الصغار، قام بإعداد ملصق بصور أطفال صغار في السن.

لم يفِ القس بأي وعد من الوعود التي قطعها للأطفال الزامبين. كان العاملون في مقر البرنامج في تكساس يوقظون الأطفال فجر كل يوم، ويجبرون على الحفر لبناء بركة سباحة. وبعد ساعات من العمل الشاق تحت الشمس الحارقة، كانوا يتمرنون على أداء الترانيم بعد الظهر وفي المساء.

وبالرغم من الإجهاد الذي كانوا يشعرون به في نهاية كل يوم، إلا أن ذلك لا يُقارن بالتعب الذي كانوا يحسّون به وهم يتنقلون لتقديم عروضهم في أيام تمتد إلى 18ساعة، وسبعة أيام في الأسبوع على مدار شهر في الرحلة الواحدة.

كان الأطفــال يسافرون من مكان إلى آخر وهــم محشورون داخل عربة صغيرة. وفي إحدى المرات، وصلوا إلى أحد الأمكنة، وأعدّوا المسرح للعرض، وبعد انتهاء الحفلة الموسيقية، قاموا بتفكيكه أيضا. لقد كانوا يقومون بهذه العملية عدة مرات في اليوم الواحد. ويصف غيفين إحساسهم بالقول: كنت أشعر أنني دمية بأيديهم، يمسكونها بخيط ويحركونها كيفما شاؤوا. كان يطلب إلي الابتسام والغناء بتعابير الفرح الإلهي، إلّا أن الترانيم فقدت معناها في نفسي.

بعد مضي ثلاثة أشهر على وصوله إلى الولايات المتحدة، سأل غيفين القس غرايمــز وابنته باربرا عن موعد بــدء الدراسة التي وعد القس أنه سوف يوفرها لهــم. كانت ردة فعل القس وابنته غيــر متوقعة، إذ انتابهما غضب شديد، وأخذا يصرخــان ويشتمان. وقــالا له إنه ناكر للجميل، ويتعين عليــه شكرهما لأنه مُنِحَ فرصــة العيش في أمريكا. كانت تلــك المرة الأولى والأخيرة التي يسأل فيها عن الدراسة. كما تبين أن تعميد الأولاد في الكنيسة كان وعدًا كاذبًا أيضًا.

بعد وفاة القس غرايمز في عام 1999، أخذت الأحداث مسارًا مختلفًا؛ تولت ابنته باربرا وزوجها غــاري مارتنز المهمة من بعده، هي لإدارة الشؤون المالية، فــي حين يشرف زوجها على برامج الجــولات الموسيقية. لكن ذلك لم يغيّر من بؤس الأولاد شيئًا، إذ استمرت معاناتهم مثلما كانت عليه في أيام القس غرايمز.

كانــت باربرا وغاري مارتنز لا يتمتعان بالكياسة والذكاء اللذين كان يتمتع بهما القس غرايمز. فقد قررا في أحد الأيام ترحيل اثنين من الأولاد إلى زامبيا لأنهما يؤثران سلبًا في عمل الجوقة، فاتصلا بإدارة الهجرة والتجنيس لترحيلهما. عندما أخذهما أحد ضباط الإدارة إلى المطار، كشفا له وهم في الطريق تفاصيل مــا كان يجــري في الخفــاء. وقد لمس الضابــط مصداقية في روايــة الطفلين، فأخذهما إلى مكان آمن بدلا من المطار.

فتح الضابـط تحقيقًا في نشاط برنامج «تعليـم المعلمين كيفية التعليم»، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة فورية، والسبب في ذلك أن باربرا وزوجها كتبا للأولاد ما سيقولونه ردًّا على أسئلة المحققين. كما حذّرا الأولاد من أن المحققين سوف يسجنوهـم ويعذبوهم إذا ما شعـروا أن هناك ما يريب. ويقول غيفين عن ذلك: لقد جعلانا نعتقد أن هؤلاء الضباط لن يساعدوننا. في بلادنا، يأخذ المسؤولون الحكوميون الرشوة كل يوم. نحن لا نثق بمن يرتدي الزي الرسمي.

ونتيجة لهذا التخويف، رفض الأولاد جميعهم الإدلاء بشهاداتهم. ولذلك، لم يتوصل التحقيق إلى نتيجة إلا بعد سبعة أشهر، عندما استطاع ضباط إدارة الهجرة تخليص الأولاد من قبضة المشرفين على برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم».

عندما علمت ساندي شيبيرد بالأمر، سارعت في الاتصال بالشرطة الذين أكـدوا لهـا الخبر، لكنهم قالـوا إنهم سوف يحتجزون الأولاد فـي إحدى زنازين الإدارة إذا لـم يتوافـر لهم مأوى آمن. وجدت ساندي عـددًا كبيرًا من العائلات الذين استعدوا لإيواء هؤلاء الأولاد المنقطعين عن عائلاتهم.

بعـد رحلـة طويلة مع الفحوص الطبيـة، واستصدار إذن عمـل، وطلبات الحصول على التأشيرة، حصلت ساندي وزوجها في عام 2001 على حق الوصاية القانونيـة علـى غيفين؛ سجّلاه في الصف السابـع، أداؤه كان رائعا في المرحلة الثانويـة، تخرج في جامعـة تكساس. كان يعمل بدوام جزئـي، ويرسل معظم ما يكسبه من نقود إلى أشقائه في زامبيا.

عمل غيفين بعد تخرجه على تحقيق وعد لم يفِ به القس غرايمز، إذ نظّم حملـة جمع تبرعـات لبناء مدارس فـي زيمبابوي، كما طـاف الولايات المتحدة ليتحـدث عن تجربته، وعن شعور ضحايا الاتجار بالبشر. وكان يقول لمستمعيه: انظروا تحت السطح؛ فضحايا الاتجار بالبشر غالبًا ما يكونون في الخفاء. لذا، ابحثوا عن إشارات تبدو لكم مريبة.

اتساع الرؤية

أصبحت كاي باك المدير التنفيذي لتحالف إلغاء العبودية والاتجار بالبشر في عام 2003، وهي تتمتع بخبرة عالمية في مجال مناهضة الرق. عاشت كاي، المولودة في كندا، في آسيا من عام 1990 — 1996، واشتركت مع مناهضي الرق في تايلاند واليابان لإعداد استراتيجيات تكفل الحدّ من حالات الاتجار بالبشر في المجتمعات الريفية. وبالرغم من أن الحلول الاقتصادية والاجتماعية الإبداعية قد ساعدت على بناء مجتمعات قوية، إلا أن كاتي لم تتجاهل حقيقة وجود نمط من الثقافة الهدّامة يتمثل في تسامح المجتمع مع العنف ضد النساء.

لم تكن كاتي الوحيدة التي تتمسك بهذه القناعة، بل إن أي تحليل موضوعي لتجارة الرق العالمية يدعم هذا الاستنتاج؛ فلو أخذنا خمسا من ضحايا تجارة الرقيق كعينة، سنجد أن أربعا منهن من النساء. ولا تختلف النتيجة كثيرًا، حتى وإن فصلنا عبودية الجنس عن أعمال السخرة. ومع أن الإناث هن الفئة المُستهدفة في تجارة الرقيق، فهنّ يشكّلن الأغلبية بين قوة العمالة القسرية في المصانع، ومصانع النسيج والسجاد، والخدمة المنزلية، وغيرها أيضا. كما تظهر البحوث أن الأنثى، بغض النظر عن نوع عبوديتها، تتعرض في معظم الحالات إلى العنف الجنسي.

عندما غادرت آسيا، انضمت كاتي إلى منظمة كندية غير حكومية، تعنى بالعنف الاجتماعي ضد النساء. ومع أن الألفاظ قد تغيرت – من الاتجار بالبشر إلى العنف على أساس النوع الاجتماعي – فإنها ما تزال تتعامل مع القضايا نفسها التي واجهتها في آسيا. وعندما لاحت لها هذه الفرصة لرئاسة تحالف إلغاء العبودية، عادت مرة أخرى لاجتياز متاهات الاتجار بالبشر. كانت مؤسسة النساء في ولاية كاليفورنيا أول مؤسسة خاصة تدعم عمل الائتلاف، لاقتناعها

بأن موجة مكافحة شبكات الاتجار بالبشر في العالم سوف تبلغ أوجها عندما تتحد النساء على المستوى العالمي لتمكين النساء الأخريات.

من غير الإنصاف تصنيف هذا التحالف على أنه منظمة نسائية؛ لأنه يعمل من أجل مساعدة الناجين من الرق ومعاقبة تجار الرقيق عموما. كما تميز التحالف عن غيره من المنظمات في مجال تدريب الشرطة على كيفية تحديد الضحايا المحتملين، وإنقاذهم، وتوفير الرعاية لهم لاحقًا. وقد نُظِّمت برامج تدريب للشرطة في عدة ولايات أمريكية.

في عام 2005، وفي إحدى ورشات التدريب، كان الخلاف حول دوريات الحدود قد بلغ أشدّه بعد ظهور منظمة خاصة أخذت على عاتقها مهمة منع المهاجرين من دخول الولايات المتحدة، مما جعل شرطة أريزونا تعلن أنها غير مسؤولة عن تطبيق قوانين الهجرة. وقالت إن التهريب مسألة فيدرالية وليست من اختصاص الولايات. لكن القائمين على الورشة أوضحوا للمشاركين فيها الفرق بين التهريب من جهة (وهي جريمة يقوم فيها أفراد بمساعدة المهاجرين على عبور الحدود دون وثائق أو موافقة رسمية) والاتجار بالبشر (وهي جريمة يُجبر فيها أفراد أو يُخدعون لدخول الولايات المتحدة، ثم يضطرون إلى العمل رغم أنوفهم) من جهة أخرى.

وأكد قائد دائرة شرطة مدينة لوس أنجلوس الذي يتعامل مع قضايا الاتجار بالبشر على أهمية التدريب لإرساء الشراكة بين الشرطة والمجتمع. وقال: غالبا ما تكون هذه التجارة طيّ الخفاء؛ لذا، علينا التركيز على الدلالات والإشارات التي قد تقود إليها. في الماضي، كنا نركز على الجريمة التي نحقق فيها. ففي قضية تتعلق بالعنف المنزلي، مثلا، لم نكن نسأل الضحية عن موطنها، أو كيف يمكن أن تكون قد وقعت تحت سيطرة صاحب المنزل».

كما شدّد أيضًا على أهمية التعاون بين الشرطة والمنظمات غير الحكومية من أجل كسب ثقة الضحايا والشهود المحتملين في قضايا التجارة بالبشر؛ حيث تستطيع المنظمات غير الحكومية مساعدة الشرطة بإقناع المواطنين الأجانب الذين يخافون التحدث إليها، بأنها تقف إلى جانبهم وسوف تسعى إلى معاقبة كل تاجر رقيق. وفي الوقت ذاته، تستطيع المنظمة غير الحكومية مساعدة الشرطة على فهم القضايا الثقافية غير المعلنة التي يضيفها الضحايا أو الشهود إلى القضية.

آنا رودريغيز

ولدت آنا في مدينة سان خوان في بورتوريكو. وعندما جاءت إلى فلوريدا بعد انتقال والدها إلى العمل في فرع الشركة في «ولاية الحمضيات»، كان عمرها 18 عامًا. ثم تزوجت مبكرًا وأنشأت عائلة. وبعد أن كبر أطفالها، أخذت تفكر في الكيفية التي تمكنها من مساعدة مجتمعها المحلي. وسنحت لها الفرصة عندما دعاها مدير برنامج العنف المنزلي للعمل التطوعي في ملجأ البرنامج لأيام قليلة كلّ شهر.

أحبت آنا العمل في الملجأ، واكتشفت أن لديها القدرة على التعامل مع الأزمات بأعصاب باردة. ولذلك، سرعان ما أخذ الناس يأتون إليها لمساعدتهم على حل مشكلاتهم. ولأنها تتمتع بشخصية دمثة، فإنها لا تجعل الضحايا يرثون لحالهم، بل تجعلهم يشعرون أنها إلى جانبهم وليست ضدهم.

وفي أثناء عملها في الملجأ، تعاونت آنا مع جهاز القضاء لتقديم قضايا العنف المنزلي إلى المحكمة. في الماضي، لم يكن المحققون أو المدعون العامون يستطيعون إقناع النساء المعنّفات للحديث عما فعله بهن أزواجهن أو أصدقائهن. يضاف إلى ذلك أن معظم العمال المهاجرين في ولايتها لا يثقون برجال الشرطة.

وهـم يخافون مـن قيام الشرطة بإبعادهم إذا ما أبلغـوا عن جريمة ما. ولذلك، أصبحت المحاكم، الآن، تنظر في قضايا لم يكن من الممكن النظر فيها سابقًا بسبب تحفظات الضحايا.

في عام 1995، انضمت آنا إلى مكتب عمدة المقاطعة للعمل مسؤولة ارتباط مـع المجتمع المحلي. وقد تطلبت هذه الوظيفـة منها بذل جهد كبير؛ لأن عمال المزارع يبدؤون يومهم في الساعة الرابعة صباحًا وينتهون من العمل عند الغسق مساء. وعندما توطـدت عرى الثقة بينها وبين مجتمع المهاجرين، أصبح مكتب العمدة يزدحم بالمشتكين كأنه عيادة طوارئ في مستشفى عام.

بعد قضيتهما الأولى مع الفتاة الغواتيمالية شيكا غارسيا، لمست آنا تزايدًا فـي أعداد حالات الاتجار بالبشر، ولكن ندرة الخدمات المقدمة للضحايا كانت تسبـب لها إحباطًا. في مرة واحدة، أنقذ مكتب العمـدة سبعة أطفال هُرّبوا إلى الولايـات المتحدة لغايات الجنس، ولم تعثر آنا على أي مكان يأويهم لأن الجهاز القضائـي لا يدير سوى سجون الأحداث التي يوضع فيهـا الأطفال الهاربون من عائلاتهـم والخارجون على القانون من الأقليات. أما ضحايا الجريمة فلا يمكن إيواؤهم في السجن.

كما أعربت آنا عن سخطها لأن كثيرًا من قضايا الاتجار بالبشر أخذت تتعثر، ولا تصل إلى المحكمة إطلاقًا. إنّ النظر في قضية الاتجار بالبشر يتطلب تفانيًا وإخلاصًـا؛ لأنهـا مكلفة وتستغرق وقتًا طويلا، فكثيرًا مـا تكون هناك حاجة إلى إرسال محقق إلى دولة أجنبية للكشف على الموقع الأصلي للاختطاف. يضاف إلى ذلك تردّد الضحايا في التعاون لأنهم رُوّعوا نفسيًّا، أو هدّدوا بالقتل إذا ما تقدّموا للشهادة. وربما يلجأ تجار الرقيق إلى تصوير الضحية في مشاهد جنسية معيبة، ومن ثمَّ التهديد بإرسال المشاهد المصورة إلى عائلتها وجيرانها في بلدها الأم.

بعد أن لمست بنفسها الأسباب كلها التي قد تؤدي إلى الإحباط، استقالت آنا من مكتب العمدة، وأنشأت تحالف فلوريدا لمناهضة الاتجار بالبشر. وبصفتها مديرة تنفيذية لهذا التحالف، فقد تمثل هدفها الرئيس في إيجاد وكالة تربط بين أجهزة تنفيذ القانون، ومؤسسات الخدمة الاجتماعية، وضحايا الاتجار بالبشر. استطاعت آنا الحصول على التمويل من عدة جهات حكومية - على رأسها وزارة الصحة والخدمات الإنسانية - ومتبرعين قليلي العدد. وإضافة إلى هذا المنصب، تعمل آنا مدربة في الاتجار بالبشر لمنظمة الدول الأمريكية. وهي تؤمن أن وقف عمليات الاتجار بالبشر يتطلب جهدًا مجتمعيًّا واسعًا. وعليه، أقامت علاقة وثيقة مع سلطـات تنفيذ القانون المحلية لضمان حصول رجال الشرطة على التدريب الكافي للتعامل مع قضايا هذه التجارة. ولهذه الغاية، فإنها تعقد ورشات عمل لأي مجموعة يمكن أن يكون لها احتكاك مع الناس في بيوتهم أو أماكن عملهم. ومثالا علـى ذلك، فإنها تـدرب عمال شركات الخدمات الذين يقـرؤون عدادات المياه والكهربـاء في الأحياء السكنية، وكذلك موظفـي الرعاية الاجتماعية والصحية الذين يـزورون البيوت. والغاية من هذا التدريب هـي: كلما زاد عدد الأشخاص الذيـن يعرفـون المؤشرات التي عليهـم البحث عنها، زاد عـدد الضحايا الذين يمكن إنقاذهم.

في عام 2009، نجحت وحدة في إنقاذ 250 ضحية في ولاية فلوريدا. وهي تحـدد في ندواتها البؤر التي يمكن أن يوجد فيها هؤلاء الضحايا، وهي: خدمات تنظيف المنازل، خدمات البستنة والحدائق، البيوت التي تستقدم الخدم، المشاريع الزراعية الكبيرة، مواقع البناء والإنشاءات، الملاهي، مصانع الملابس والنسيج، خدمات الفنادق، محال التجميل، تجمعات المهاجرين، أسواق الدعارة، صالونات التدليك، حالات العنف الأسري. وبعد تحديد هذه الأماكن، تطرح على المشاركين مجموعة من الأسئلة ليستطيعوا من خلال الإجابة عنها تعرّف حالات الرق. ومن هذه الأسئلة:

- هل تتمتع الضحية المحتملة بحرية الحركة؟
- هل يُسمح للضحية المحتملة بالاحتكاك بالمجتمع، أوحضور المناسبات الاجتماعية والدينية دون مرافق؟
- هـل الضحية صغيرة السن؟ وهل تبدو تحت سيطرة أحد البالغين غير أبويها؟
- هل يوجد للسكن أبواب خارجية ذات أقفال؟ أو: هل هو محاط بأسلاك شائكة متجهة إلى الداخل لمنع الناس في داخل السكن من الخروج؟
- هل هناك ألواح مثبتة على النوافذ؟
- هل هناك حركة دخول وخروج منتظمة لرجال؟
- هل تبدو النساء اللواتي يدخلن ويخرجن من السكن تحت مراقبة دائمة من الحراس؟
- هل تعرضت الضحية المحتملة إلى تهديد بالترحيل؟
- هل تعرضت الضحية المحتملة أو أحد أقاربها، إلى التهديد بالأذى إذا ما حاولت الهرب؟
- هـل تملك الضحية المحتملة وثائق ثبوتية (جواز سفر) مثلاً؟ وإذا لم تمتلك هذه الوثائق، فمن الذي يحتفظ بها؟
- هل لُقِّنت الضحية المحتملة ما ستقوله في حال التحقيق معها من قبل سلطات تنفيذ القانون؟
- هل أجبرت الضحية المحتملة على القيام بعمل ما؟

- هل أُرغمت الضحية المحتملة على القيام بممارسات جنسية؟
- هل حُرمت الضحية المحتملة من: الطعام، أو الماء، أو النوم، أو الرعاية الصحية، أو إحدى ضروريات الحياة؟

ومـرة تلو أخرى، تثبت خبرة آنا أن الحال سوف يتغير عندما يتعلم الناس قـراءة إشارات التحذير بوجود عبودية، ويشعرون بالثقة في اتخاذ إجراء صارم بحـق المتورطين فيها. فمثـلا، بعد دورة تدريبية في إبريـل عام 2005، تقدّمت إحدى العاملات في مجال الرعاية الاجتماعية من آنا، وقالت لها إنها تعرف فتاة في أحد المنتجعات السياحية تنطبق عليها مواصفات ضحايا الاتجار بالبشر.

بعـد أيام قليلة، رافقت آنا قوة من الشرطة التي داهمت المنتجع، وأنقذت فتـاة غواتيمالية تبلغ من العمر 14سنة، وقـد كانت مُستعبدة منذ ثلاث سنوات، علـى يد تاجر الرقيق الذي يملـك المنتجع. كان صاحـب المنتجع يجبرها على إعـداد وجبات الطعام للعمـال، وكان يحبسها داخل المنـزل عند خروج العمال لعملهم. كما كان يغتصبها، ويسمـح للعمال وللموردين الذين يطالبونه بديونهم بممارسة الرذيلة معها.

ذكـرت الطفلة في إفادتها أنهـا كانت حاملا في شهرهـا السادس، العام الماضـي. إلّا أن تاجر الرقيـق ضربها بقسوة، فهبّ أحـد الجيران لمساعدتها، ونقلها إلى المستشفى حيث أجهضت هناك. أبلغ الجار الشرطة بالحادث، لكنها لم تتخذ أي إجراء، واعتبرت القضية نزاعًا عائليًّا.

كانت آنا تسرد هذه القصة لتبيّن الأثر الذي يمكن أن يحدثه تكاتف أفراد المجتمـع. وبما أنهـا لم تقبل أن يظل المجرم دون عقـاب، فقد ظلت تصرّ على الشرطة إلى أن تدخلت، واعتقلت الفاعل الذي اعترف بجريمة الاتجار بالأطفال لغايـات الجنس. ولم يكن هو الوحيد الذي حُكم عليه بالسجن، بل حُوكمت أيضًا

شقيقتـه لتسترها على الجريمة، وكذلك علـى أحد شركائه الذي مارس الجنس مع قاصر مقابل دين مستحق على صاحب المنتجع.

وتؤكد آنا أن أشياء كثيرة قد تغيرت في العقد الماضي، ويعود الفضل في ذلك إلى إنشـاء جبهة المجتمع الموحدة التي يمكنها هزيمة شبكات الاتجار بالبشر. لكنهـا في الوقت ذاته لا تستهين بأي عمـل مهما كان متواضعًا، ومن ذلك توعية المجتمـع؛ لأن الاتجار بالبشر يمكـن أن ينجح فقط إذا ما بقيت الضحايا بعيدة عن أنظار الناس. لذا، علينا أن نكشف حجاب الجهالة.